الفصل الرابع

الديانة الصينية والكنفوشيوسة

قديمًا قال الصينيون أن إله السماء كائن عظيم محب للخير، ويكره الشر ويجازى الناس بأعمالهم، كما أنهم كانوا لا يؤمنون بوجود أي قوى خبيثة في هذا العالم، ثم جاء طور التغيير الفكري تحت إيحاء التخريج والتغيير، وبمرور الأيام وتداول الأعوام، تغيرت الأفكار، فأضافوا إلى هذا الإله الواحد كثيرًا من مظاهر الطبيعة، كالشمس والقمر والكواكب والنجوم والأرض، وما عليها من جبال وتلال، وما يجرى فيها من بحار وأنهار. ثم تطورت معتقداتهم، فاعتقدوا بوجود كائنات روحية تسكن البيوت، وأن تلك الأرواح لها قدرة على النفع والضرر، فقدموا لها القرابين، كما كانوا يعبدون أرواح أسلافهم، وتحول الإله العظيم الواحد إلى آلهة متعددة.

كنفوشيوس:

ولد سنة ٥٥١ قبل الميلاد في مقاطعة (لو) من أعمال ولاية شانتنج، وكان منذ صباه مغرمًا بتقليد الكهنة في تقديم القرابين، وإقامة الشعائر الدينية، ولما كبر أثر في حياته ما شب عليه في صغره؛ فقد تولى أعمالاً كثيرة في الحكومة، ثم عمل مدرسًا، ومن وحي التدريس وحبه للإلقاء

والتلقين نشأ عنده التفكير والتأمل، وخرج على الناس بمذهبه الذي ضمنه تعاليمه وآراءه، ووضع له الأسس والمبادئ التي دان لها واعتقدها وآمن بها كثير من أهل الصين. وقد عمل على نشر مذهبه بكل ما أوتي من جهد، ووسائل، وإمكانيات، فقد كان ينتقل من ولاية إلى ولاية يبشر بهذا المذهب حتى مات في سن الثالثة والسبعين.

مذهب كنفوشيوس:

وجد كنفوشيوس قومه غارقين في بحر من الأوهام، عاكفين على التفكير في عالم الأرواح، والتأمل في ذات الإله، مضيعين الوقت في البحث عن صفات الملائكة والجند، منقبين عن الحياة المقبلة بعد الموت، جل همهم تقديم القرابين وإقامة الشعائر الدينية لإرضاء أرواح أسلافهم، باحثين عما يرضي قوى الطبيعة عنهم؛ فالسماء لا تمطر لأن إلهها غاضب، والكواكب لا تظهر لأنها غير راضية، والشمس في كسوف لأن أهل الأرض عصاة، وبهذا انصرفوا عن الحياة انصرافًا تامًا، وأصبح الشعب متكاسلاً غاية التكاسل، مما نتج عنه وقوف عجلة الحياة، وخيم الجهل بالواجب والحق على الناس؛ فكسدت التجارة، وتوقفت الأعمال العامة والخاصة، حتى أصبحت الحياة في الصين أشبه ما تكون أشباحًا بلا روح تسيرها أو تدفعها.

فخرج عليهم كنفوشيوس بمذهبه، فدعا إلى معرفة كل إنسان ما عليه من واجبات، وما له من حقوق، وبيّن ماهية الفرد في المجتمع، وواجبه نحو

مجتمعه، وحقه في ذلك المجتمع. فرق بين العبادة والعمل، وجعل لإصلاح المجتمع أسسًا، منها: إصلاح الفرد هو إصلاح الأسرة، وصلاح الأسرة هو صلاح المجتمع. ودعا أهل الصين للعلم، كما بث فيهم روح الفضيلة والتآخي، والحب والطهر، والنقاء والصبر، والعزة والكرامة، والتزود من المعرفة، وكان يلقى دروسه على هيئة محاضرات كلامية، فلم يكتب حرفًا واحدًا، ولكن كان تلاميذه يجمعون ما يخرج مِن فِيه من حِكَم، وبذلك اعتبر أكبر حكماء الصين ومؤسس الديانة الصينية، وأجمع الصينيون على عبادته وتقديس تعاليمه وحكمه، وأصبحت الكتب التي تركها بعد موته والتي كتبت بخط تلاميذه كتبًا مقدسة، لها من القداسة ما لأي كتب سماوية، حتى اعتبرت فيما بعد دستورًا للدين، وهذه الكتب ثلاثة هي:

١- مختارات كنفوشيوس.
٢- تعاليم البالغين.
٣- الاعتدال.

عبادة الصينيين وعقائدهم:

مما تقدم يتبين لنا أن الصين كانت عبادتهم كلها تتلخص في أن يقيموا الشعائر ويقدموا القرابين للإله الأعظم، وأرواح أسلافهم، وقوى الطبيعة المختلفة، وهذا كان له أثره في إقامة المعابد والهياكل، فقد كانت تُبنى المعابد في الصين على هيئة هيكل عظيم بداخله هياكل ثلاثة ترمز إلى مذابح ثلاثة، لكل معبود هيكل:

١- مذبح الكواكب والأفلاك السماوية والأرضية؛ وهذا تقدم فيه القرابين للشمس، والقمر، والكواكب، والنجوم، والأرض، والتلال، والجبال، والأنهار، وما إلى ذلك من قوى الطبيعة.

٢- مذبح الأرواح؛ حيث كانوا يعتقدون أن أرواح آبائهم وأجدادهم وملوكهم تهديهم في تلك الحياة، وتقف معهم وقت الشدة والرخاء، فكانوا يقدمون القرابين لها في هذا المذبح زيادة في إرضائها، وليستهدوها في أمورهم الحاضرة والمقبلة، ويطلبون منها السعادة في حياتهم.

٣- مذبح الإله الأعظم: وهو خاص بعظيم السماء، وهذا المذبح أقدم المذابح وأعظمها وأكبرها، لا تجد حوله أصنامًا، أو تماثي،. أو دمى لأنه مذبح الإله الغير منظور.

ويعتقد الصينيون في عظيم السماء، أو الإله الغير منظور، أنه الرب العظيم ومالك الأكوان ذو الفضل غير المتناهي، ليس له مكان أو زمان، موجود في كل الوجود، أينما توجه الإنسان فهو معه، حاضر لا يغيب، الإله الذي لا يحابي، بل يجود بلطفه ورعايته على الإنسان الفاضل، ويحب استعمال الرأفة والرحمة، وأنه يعتني بالأرض، وحضوره فيها دائم وإن كان غير منظور، وقد سموه (ني سز)، أو (تي ين)، ثم تطورت التسمية إلى (شانج تي).

وأعتقد أنه ليس بمستغرب على القارئ أن يعرف من وحي ما تقدم عن المذابح الثلاثة، أنه ولابد أن يكون هناك ثالوث إلهي على غرار

الثالوث الهندى (برهما– فشنو– سفا)، فقد تحولت العبادة من كونها لإله السماء (الإله الغير منظور)، إلى أن أصبحت لثالوث وضعه فيلسوف صيني يدعى (فوفي).

الثالوث الصينى:

١– تي ين، أو الإله المجهول غير المنظور.
٢– تشانج (أرواح الآباء، والحكماء، والملوك).
٣– ني سز (الشمس والكواكب السيارة).

وكان المذبحان الأول والثاني المخصصين لعبادة الأقنومين الأولين من الثالوث تقام حولها الأصنام والتماثيل التي ترمز إلى صورة الآباء، والحكماء، والملوك. كما كانت تقام التماثيل التي ترمز إلى قوى الطبيعة، ومن ذلك أصبح الصينيون يعبدون الأصنام.

ومن الصين انتقلت هذه المبادئ إلى اليابان، حتى أصبحت العائلة المالكة في اليابان آلهة، وأعظم الآلهة الإمبراطور.